يهود مصر الحديثة فى الدراسات الأجنبية

أ . د . رءوف عباس حامد

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

بكلية الآداب - جامعة القاهرة

يهود مصر الحديثة فى الدراسات الأجنبية

كان الوجود اليهودى فى مصر يضرب بجذوره إلى العصور القديمة ، وتتردد أصداء ذلك الوجود فى الكتب المقدسة التوراة ، والإنجيل ، والقرآن. ولم يعن خروج اليهود من مصر مع النبي موسى (كما جاء فى الكتب المقدسة) أن صلتهم انقطعت بمصر ، فقد كان لهم وجود ملموس فى العصرين البطلمى والرومانى ، واستمر ذلك الوجود فى العصر الإسلامى حيث أتيح لليهود فى مصر لعب دور حيوى فى تجارة البحر المتوسط فى العصر الإسلامى يتجلى فى وثائق الجنيزة ، ودراسة جويتين الشهيرة ، فضلا عن مصادر تاريخ العصر ، وكتابات المؤرخين المحدثين من العرب وغيرهم .

ولكن الوجود اليهودى فى مصر الحديثة كان له شأن آخر ، مرده إلى الظروف التى تعرض لها اليهود فى أوروبا ، وما عانوه من اضطهاد ورفض من مختلف الدول القومية الأوروبية الحديثة. وفى سعيهم للبحث عن ملجأ آمن، كانت مصر من أنسب البلاد التى قصدوها . وكان لتلك الهجرات اليهودية الحديثة إلى مصر آثارها الفريدة على يهود مصر الذين لا وطن لهم سواها، وأولئك الذين توالت موجات هجرتهم إلى مصر على اختلاف مذاهبهم الدينية، ولغاتهم، وثقافاتهم .وجاءت الحركة الصهيونية فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر لتضيف عاملا كانت له آثاره السلبية على الوجود اليهودى فى مصر.

وقد اهتم بالتأريخ للوجود اليهودى فى مصر ثلاثة من الباحثين الأجانب (اليهود) أمريكيان وألمانية. ولهم جميعا صلات بإسرائيل ومصر ، ورغم المدى الزمنى البعيد بين أول تلك الدراسات التى نشرت بالعبرية عام ١٩٦٧ ، ثم ترجمت إلى الإنجليزية عام ١٩٦٩ ، وآخر تلك الدراسات التى نشرت عام ١٩٩٨، إلا أن ثمة تقسيما للعمل بين تلك الدراسات : فالأولى اختصت بالقرن التاسع عشر ، والثانية اختصت بالنصف الأول من القرن العشرين حتى نزوح معظم اليهود من مصر ، والثالثة تتبعت يهود مصر فى « الشتات »، وراحت تبحث عن

دور محتمل لهم فى مد الجسور بين إسرائيل ومصر فى «مرحلة السلام».

وصاحب الدراسة الأولى هو جاكوب لانداو Landau Jacob الذي نشأ بالإسكندرية ، وهاجر منها بصحبة أسرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٦ حيث أتم دراسته الجامعية وحصل على الدكتوراه برسالة عن «البرلمانات والأحزاب فى مصر »، توجه بعدها إلى إسرائيل ، فعمل بالتدريس بالجامعة نحو عقدين من الزمان ، ثم عاد إلى أمريكا فى الثمانينيات ، حيث تتركز زمرة خبراء الشرق الأوسط الصهاينة فى مراكز البحوث المؤثرة على صناعة القرار الأمريكى .

والدراسة التى تعنينا هنا عن «اليهود فى مصر القرن التاسع عشر» نشرها بالعبرية فى إسرائيل عام ١٩٦٧ ، وصدرت الطبعة الإنجليزية منها بعنوان : Jews in Nineteenth Century Egypt عن قسم النشر بجامعة نيويورك عام ١٩٦٩ . وتقع الدراسة فى ١٢٥ صفحة ، بينما تقع ملاحق الكتاب فى ٢١٥ صفحة ، ضمنها نصوصا وثائقية بالعبرية والعربية والفرنسية والإيطالية دون تحقيق لها أو دراسة ، مما يعنى أن الغرض من نشرها جعلها متاحة للباحثين .

وصاحبة الدراسة الثانية جوردن كرامر Gurdun Krämer باحثة ألمانية ، كانت الدراسة موضوعا لرسالتها التى حصلت بها على درجة الدكتوراه ، ونشرت بالألمانية عام ١٩٨٢ بعنوان «اليهود فى مصر الحديثة ١٩١٤ – ١٩٥٢»، استغرقت ترجمتها إلى الإنجليزية ومراجعة الترجمة عامان (١٩٨٥ ـ ١٩٨٧)، وصدرت عام ١٩٨٩ عن قسم النشر بجامعة واشنطون بسياتل ، بعنوان The Jews in Modern Egypt 1914 - 1952، وأضافت الباحثة إلى الطبعة الإنجليزية الفصل الخاص بالنشاط الصهيونى فى مصر من دراسة أعدتها بعد الحصول على الدكتوراه نشرت بالقدس عام ١٩٨٤ بالإنجليزية في كتاب تولى جابرييل بير وأمتون كوهين تحريره بعنوان «مصر وفلسطين ، ألف عام من الارتباط» Egypt and Palestine A Millennium of Association ، وقد استخدمت الباحثة المصادر الوثائقية المصرية والإسرائيلية وغيرها من

المصادر الوثائقية الأوروبية ، كما استخرجت مادتها من المراجع المعتبرة العربية والعبرية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية . ويقع الكتاب فى ٣١٩ صفحة.

أما الدراسة الثالثة فصاحبها جويل بينين Jeol Beinin أستاذ تاريخ الشرق الأوسط بجامعة ستانفورد بالولايات المتحدة ، له دراسات سابقة منشورة بالإنجليزية عن الحركة العمالية فى مصر والحركة الشيوعية ، وهو أمريكى يهودى ، كان صهيونيا حتى تخرجه فى الجامعة ، اتجه إلى إسرائيل عام ١٩٧٠ ليعمل فى الكيبوتز ، ويشارك مشاركة عملية فى بناء المشروع الصهيونى ، ولكن التناقضات الاجتماعية والسياسية التى عايشها جعلته ينضم إلى الحركة الطلابية اليسارية فى الجامعة العبرية ، ويتعرض للاعتقال عدة مرات . وترك إسرائيل عام ١٩٧٣ عائدا إلى أمريكا حتى لا يجند فى الجيش الإسرائيلى، وإن كانت صلته استمرت بإسرائيل حيث عاش والداه هناك .

واختار جويل بينين للكتاب عنوانا بالغ الدلالة هو « شتات اليهود المصريين ، الثقافة والسياسة وتكوين دياسبورا حديثة» The Dispersion of Egyptian Jewry : Culture , Politics and the Formation of Modern Diaspora.

وقد صدر الكتاب فى إطار سلسلة الدراسات النقدية فى الأدب والثقافة والمجتمع اليهودى عن قسم النشر بجامعة كاليفورنيا عام ١٩٩٨ ، واستخدم المؤلف المصادر والمراجع العربية والعبرية والأوروبية ، كما قام بزيارات ميدانية للبلاد التى توجه إليها يهود مصر (١٩٤٩ - ١٩٦١) فى إسرائيل وأوروبا وأمريكا ، وأجرى لقاءات مع البارزين منهم في تلك البلاد . ورغم تناوله لتاريخ الوجود اليهودى فى مصر إلا أنه ركز - بصفة خاصة - على النصف الثانى من القرن العشرين ، وعلى تطلع يهود مصر الإسرائيليين إلى لعب دور فى تطبيع العلاقة بين مصر وإسرائيل فى مرحلة «السلام».

وهكذا تلتقط كل واحدة من الدراسات الثلاث الخيط من بعضها البعض ، لتنسج معا قصة الوجود اليهودى فى مصر الحديثة مع التفاوت في أسلوب

المعالجة ، وفى النتائج التى توصل إليها كل منها . ونعرض فيما يلي لكل دراسة على حدة ، ثم نستخلص ما يمكن التوصل إليه من نتائج فى خاتمة البحث .

١ - اليهود فى مصر القرن التاسع عشر :

تناول جاكوب لانداو في دراسته سكان مصر من اليهود فى الفترة من الحملة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى معتمدا على كتاب وصف مصر وكتب الرحالة وادوارد لين ، حيث تراوح عددهم بين ٣-٥ آلاف جميعهم من السفارديم والقرائين ، غلب وجودهم فى أعمال الصيرفة والحرف ، وخاصة الصاغة وتجارة الأقمشة وغيرها من الأعمال ، وكيف كان تركزهم فى حارة اليهود ، وتعرضهم للاضطهاد لكراهية المصريين لهم يستوي في ذلك المسلمون والأقباط ، وتعرضهم للمصادرة والابتزاز . وعندما يضرب أمثلة لذلك نجده يتحدث عن ظروف عامة تعرض لها الحرفيون والتجار جميعا بغض النظر عن ديانتهم . ويرى أن موقف السلطة منهم تحسن في عهد محمد على بصوره نسبية، ولكنه يخص سعيد باشا بفضل تحقيق المساواة بين جميع الذميين وإلغاء الجزية (وجاء ذلك فى إطار الإصلاحات العثمانية) ، وكيف نالوا حق ملكية الأرض فى عهد محمد على ، وتدعم ذلك في عهد سعيد وإسماعيل .

وفى الفصل الثانى يرصد التغيرات التى طرأت على اليهود فى مصر بعد قدوم موجات الهجرة منذ عهد سعيد سواء من آسيا الصغرى والمغرب (السفارديم)، أو من المدن الإيطالية وشرق أوروبا (السفارديم والإشكنازيم)، وأثر ذلك على تعدد الطوائف اليهودية بمصر وتعاليها على بعضها البعض ، والخلافات المذهبية بينها ، فضلا عن التناقضات الاجتماعية بين الثراء الفاحش والفقر المدقع ، ومشكلة رعاية الجماعات المهاجرة هربا من الاضطهاد فى أوروبا .

وفى الفصل الثالث تناول تنظيم الطائفة بالقاهرة والإسكندرية ومدن الدلتا وبور سعيد والسويس حيث تباينت تلك المؤسسات وفق التباين المذهبي ،

والأصول الإقليمية التي جاء منها أصحابها ، وحرصهم على حمل الجنسيات الأجنبية والتمتع بالحماية .

وفى الفصل الرابع تحدث عن المؤسسات التعليمية فبين كيف أن نسبة الأمية بين اليهود كانت أقل كثيرا منها بين سكان البلاد المسلمين والمسيحيين ، وإن بلغت بين النساء ضعف نسبتها بين الذكور . وتحدث عن المدارس المختلفة التى أقامتها طوائف اليهود وخاصة مدارس الأليانس . وبين كيف أن اللغة العبرية لم تكن معروفة إلا لعدد محدود وخاصة رجال الدين بينما كانت الفرنسية والإيطالية والعربية أساس التعليم إلى جانب اليدش واللادينو .

وفى الفصل الخامس تناول الحياة الثقافية والدينية ، فتكلم عن الأعمال المختلفة التى كانت ذات طبيعة دينية وكتابها، وعن دخول المطبعة العبرية وطباعة الكتب الدينية بها إلى جانب الترجمة العربية فى أواخر القرن، كما تحدث عن المعابد اليهودية بالقاهرة والإسكندرية والأقاليم والجبانات، وقدم تراجم مختصرة للحاخامات الذين تعاقبوا على رئاسة كل فرع من فروع الطائفة.

وخصص الفصل السادس والأخير لبدايات الصهيونية فى مصر ، فنسب تأسيس أول جمعية صهيونية إلى باروخ الذي جاء من كورفو (إيطاليا) لهذا الغرض عام ١٨٩٦، وبين كيف أن الفكرة لم تلق رواجا بين اليهود السفارديم ، وخاصة بين أثرياء الطائفة (عائلة قطاوي) ، وكانت موضع سخريتهم حتى تم تأسيس عدد من الجمعيات الصهيونية المتفرقة خلال الحرب العالمية الأولى اتحدت مع بعضها فى نهاية الحرب ، ويعزى ذلك إلى نشاط اليهود الإشكنازيم الذين تدفقوا على مصر خلال الحرب تمهيدا للتوجه إلى فلسطين .

وفي الخاتمة يقدم ملخصا فى صفحة واحدة لما جاء بالفصول (ويلاحظ أنه استبعد من ترجمته للشخصيات اليهودية ما لم يكن لهم نشاط طائفي ، واقتصر ذكره للدوريات اليهودية على ما كانت ذات طابع طائفى أو صهيونى).

٢ - اليهود فى مصر الحديثة ١٩١٤ - ١٩٥٢ :

عللت جوردن كرامر اختيارها للعام ١٩١٤ نقطة انطلاق لدراستها بكونه نقطة فاصلة فى تاريخ مصر الحديث ، وللعام ١٩٥٢ محدداً لنهاية الفترة الزمنية للدراسة بكونه بداية لتحولات سياسية واقتصادية كبرى ، كان لها أثرها البالغ على اليهود فى مصر .

وعالجت في مقدمة الكتاب مشكلة تعداد اليهود فى مصر خلال الحقبة موضوع الدراسة ، متناولة الوجود العددي لليهود في بلاد الشرق الأوسط الإسلامية على وجه العموم ، فتذهب إلى أن عدد اليهود بلغ ٨٠٠ ألف فى بلاد الشرق الأوسط الإسلامى منهم ٦٥٠ ألفا فى البلاد العربية وشمال أفريقيا . وتحدد المؤلفة عدد اليهود فى مصر فى الثلاثينيات والأربعينيات بـ ٧٥ ألف غادر منهم ٢٠ ألف بعد حرب ١٩٤٨، ثم ٤٠ - ٥٠ ألف بعد حرب السويس والباقى بعد التأميمات وحرب ١٩٦٧ ، فلم يبق سوى ٣٠٠ - ٤٠٠ يهودى بالقاهرة والإسكندرية في الثمانينات معظمهم من كبار السن. ومعظم من خرجوا من مصر اتجهوا إلى أوروبا وأمريكا وبعضهم إلى إسرائيل . وترى الباحثة أن فكرة نبذ اليهود وعدم الحرص على دمجهم في المجتمع (فى حالة رغبتهم) إنما يرجع ذلك إلى انتشار الدعوة القومية (العروبة) فى المدن فى الثلاثينيات والأربعينيات، وإلى إشكالية وضع الأقليات الدينية على وجه الخصوص .

تناولت كرامر في الفصل الأول من الكتاب «**الهيكل الطائفى ومكوناته**».

قفزت الهجرة إلى مصر باعتبارها منطقة جذب اقتصادي بعدد اليهود من ٥٠٠٠- ٧٠٠٠ فى مطلع القرن ١٩ إلى ٢٥ ٠٠٠ عام ١٨٩٧ وأكثر من ٦٠٠٠٠عام ١٩٢٠ ، وبين الحربين ٧٥ر٠٠٠ - ٨٠ر٠٠٠ يهودي. وأشارت المؤلفة إلى هجرة السفارديم (الأسبان) من أسيا الصغرى واليونان وكورفو إلى مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وحتى عام ١٩٠٧ وهجرة الإشكنازيم (روسيا- رومانيا - بولندا) فى أوائل القرن العشرين بعضهم عاد إلى بلاده أو ذهب إلى

فلسطين بعد ١٩١٨ . هذه الهجرات المتتالية أثارت قلق اليهود فى مصر وأدت إلى إبراز التناقضات وعدم التجانس داخل الطائفة .

الإشكنازيم كانوا فقراء يشتغلون بصناعة السجاير والأحذية والحياكة والدعارة والبارات بالقاهرة والإسكندرية .

القرائون استوعبتهم الثقافة الإسلامية وتأثرت عقيدتهم بالفقه الإسلامي (الاجتهاد) ، وكانوا يعملون بحرف الصاغة والعطور وتجارة التجوال .

بعد الحرب العالمية الأولى فقد اليهود الرعوية النمسوية المجرية فطلبوا الجنسية البريطانية وذكى المندوب السامي طلبهم ولكن الخارجية البريطانية لم تتحمس لمنحهم الجنسية فسارعت فرنسا بمنح الجنسية لمن طلبها منهم وخاصة الأثرياء مثل منشة وكرايمر وجرين وغيرهم، وبلغ عددهم عام ١٩٣٩ نحو ٥٠٠٠٠ صنفوا كيهود جزائريين رغم أنهم لا صلة لهم بالجزائر (٢٥ ٪ مصريين ، ٢٥ ٪ جنسيات أجنبية ،٤٥ - ٥٠ ٪ بدون جنسية) . وجاء في إحصاء ١٩٤٧ أن نسبة اليهود المصريين ٨٠ ٪ . والأجانب ٢٠٪ . وكانت الصحافة اليهودية ١٩٤٧ تتركز فى ١٥٪ مصريين ، ١٥٪ أجانب ، ٧٠٪ بدون جنسية. وعقب اتفاقية منترو ١٩٣٧ حدث فرز اجتماعى ، الأغنياء والطبقة الوسطى أكدوا جنسيتهم الأجنبية أو حصلوا على الجنسية المصرية ، والأغلبية من الفقراء ظلوا بدون جنسية .

وكان ما بين ٤٧-٥٦ ٪ من تلاميذ المدارس الأجنبية فى مصر من اليهود في مراحل الدراسة .

وبلغت نسبة الأمية٣٠٪ (١٩٢٧) ، ٢٠٪ (١٩٤٧) ، ذكور ١٨-١٠٪ (١٩٢٧)، إناث ٣٦-٢٤٪ (١٩٤٧).

تحدثت المؤلفة بعد ذلك عن صعود أثرياء اليهود في عالم الأعمال، سوارس - موصيرى - شملا - شيكوريل - دره - دويك - حاييم - مزراحى - نجار - بتشيوتو - رومانو - سيتون -شلمون - سموحة - توريل - هرارى - قطاوى - منشة - رولو .

كما تناولت المجالات التى عملوا فيها : البنوك والصرافة – التأمين – الاستيراد والتصدير -تجارة المنسوجات – المحاماة – الطب . ولاحظت أن هناك خلط بين حجم رأس المال اليهودي في الشركات المصرية وتصنيف تلك الشركات باعتبارها مملوكة لليهود.

وقد بلغ إجمالي رأس المال اليهودى المستثمر في الشركات المصرية عام ١٩٥٦ نحو ٢ر١١ مليون جنية مصرى .

يلاحظ أن إحصاء ١٩٣٧ و ١٩٤٧ عن اليهود فى مصر يذكر نحو ٥٠٠٠ بدون عمل١٠٪ ، ٢٠٪ يعملون بالتجارة دون تحديد بين الكبار والصغار والجائلين ، ٢٠٪ غير محدد الوظيفة ،٥ ٪ خدمات خاصة ، ٢ر٣٢ ٪ ممن هاجروا من مصر إلى إسرائيل قبل ١٩٤٨ كانوا من الحرفيين والعمال هبطت نسبتهم إلى ٤ر٢٢٪ بعد عام ١٩٥٤ .

الكتاب السنوى الأمريكى لليهود - American Jewish Yearbook 1947 1948 يشير إلى أن ١٠٪ من اليهود فى مصر أثرياء و ١٥ – ٢٠٪ طبقة وسطى ، ٧٠ – ٧٥ ٪ فقراء (مقارنة بـ ٩٥ ٪ باليمن) .

وكان الأثرياء يقيمون بوسط البلد (الإسماعيلية – التوفيقية) ، والفقراء فى (الظاهر ـ العباسية). والشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى فى (مصر الجديدة)، وفى الإسكندرية (محرم بك – العطارين – الجمرك – المنشية – الرمل) .

أما عن التنظيم الطائفي لليهود في مصر فقد اتحد السفارديم والإشكنازيم والقرائون في جميع المدن ما عدا القاهرة ، وبقي الربانيون مستقلين لأن الدولة العثمانية اعترفت بهم كملة عام ١٨٣٩ وتأكد ذلك عام ١٨٩١ ، وأكدته الحكومة المصرية فى مايو ١٩١٥ ، أما القرائون فلم يحذوا حذوهم بالتقدم للدولة للاعتراف بهم كملة مما أفقدهم هذا الوضع القانوني .

تضمن التنظيم الطائفى مؤسسات دينية / اجتماعية / خيرية، تأسس الكثير منها فى القرن التاسع عشر واتسعت فى القرن العشرين .

وكان على كل يهودى (من الذكور) فوق ١٨ سنة في بعض الحالات و٢١ سنة في غيرها أن يدفع ما يشبه رسم العضوية يسمى (عريخة) قدره ١١ جنيها سنويا، أما الأثرياء فتدفع كل عائلة مبلغا كبيرا يتناسب مع ثرائها .

ومن يدفع العريخة له حق التصويت فى الانتخابات المليـة للطائفة فى المجلس الذى يتكون من ١٢ - ١٨ عضوا ، ويختار الأعضاء الرئيس ونائبه (أو نائبين) وأمين عام وأمين صندوق . ولم تكن هناك ضرورة قانونية لتصديق الحكومة على هذه المراكز الطائفية ، ولكن كان ذلك ضروريا بالنسبة للحاخامات الذين يعينون لكل فرع من الطائفة الذين يختارهم مجموع أعضاء الطائفة ، ثم يصدر قرار من الحكومة لتعيين الحاخام ليكون ممثلا للطائفة ورئيسا لها . ويظل مجلس الطائفة ممثلا لليهود جميعا بغض النظر عن مذاهبهم، وكانت الرئاسة ونيابتها قاصرة على عائلتى قطاوى وموصيرى بالقاهرة . وكانت دائرة من يتولون رئاسة مجلس الطائفة بالإسكندرية أوسع (من العائلات الثرية). وتولى رئاسة مجالس المدن الإقليمية أثرياء التجار الذين استمر بعضهم رؤساء لعدة عقود . ولم يعد حاخامات القاهرة وحاخامات الإسكندرية رؤساء للطائفة كما حدث فى القرن التاسع عشر، ولكن كبار الأثرياء أصبحوا يتولون الرئاسة. واقتصر دور الحاخامات على الخدمة الدينية وحدها فى القرن العشرين . وكانت سلطة الحاخام الأكبر مرهونة بقوة شخصيته ولا صله لها بالأصول القانونية فقد عين الحاخام الأكبر حاييم ناحوم أفندي عام ١٩٢٥ ، واستطاع بفضل خبرته وعلاقته الطيبة بالسلطات أن يصبح الرئيس الفعلي للطائفة في الأربعينيات. وفي ١٩٤٨ عدلت اللوائح لتجعل منه (بالاشتراك مع المجلس) الممثل للطائفة .فقد عين الملك فؤاد حاييم ناحوم أفندي عام ١٩٢٥ «الحاخام الأكبر للقاهرة وعموم القطر المصرى » وعندما مات عام ١٩٦٠ عين خلفه حاييم دويك قائما بعمل الحاخام ، فلم يكن له نفوذه .

هذا لا يعني أن سلطة طائفة القاهرة امتدت على طول البلاد ، إذ ظلت الإسكندرية تنازعها النفوذ على الطائفة . وتمت في عام ١٩٤٣ محاولة للتنسيق لم يصبها التوفيق .

وفى خط مواز للتنظيم الطائفى قامت محافل "بعناي بعرت " بجهود الإشكنازيم فى العشرينيات بالقاهرة والإسكندرية ، وإلى جانبها محافل للسفارديم ، ثم توحدا معا في إطار تنظيمي واحد بهدف تقديم الخدمات الاجتماعية وإصلاح حال الطائفة. واتخذ في المحافل الطابع الماسونى مع عدم إسقاط الدين من الاعتبار . وظلت المحافل تشكل إطارا لتوحيد الطائفة حتى حلت محلها الحركة الصهيونية التي عملت على توحيد الطائفة بدرجات متفاوتة من النجاح والإخفاق حتى كانت لها الغلبة فيما بين ٤٤-١٩٤٨ . وقد كتبت لوائح الطائفة بالإسكندرية بالإيطالية عام ١٨٧٢ ، وظل معمولا بها حتى الثلاثينيات من القرن العشرين وكانت الإسكندرية تتولى رئاسة الطائفة حتى الأربعينيات عندما انتقلت تلك الرئاسة إلى القاهرة .

قدمت المؤلفة نبذة عن تاريخ العائلات الثرية وما قدمته للطائفة من خدمات خيرية (بناء مدارس ابتدائية لتعليم أبناء الفقراء - مدارس الأليانس بمصروفات - مستشفيات - معابد إلخ) بالإسكندرية والقاهرة وبور سعيد وطنطا والمنصورة ودمنهور .

التغير الاجتماعي الاقتصادي والسياسي ١٩١٤- ١٩٤٨

كانت العلاقات جيدة بين الأغلبية من المسلمين واليهود في فترة بين الحربين وإن لم تكن حميمة ، ولكن التغير فى هذه العلاقات ارتبط بالتغيرات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها البلاد .

ويعالج هذا الفصل التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي شهدتها مصر خلال الفترة وتأثيرها على الطائفة اليهودية. ونلاحظ هنا أن الباحثة ترصد التلاحم الذى تم بين كبار الممولين اليهود وكبار الملاك المصريين ، وكذلك قطاع الأعمال الوطني في الصناعة والتجارة وخاصة بنك مصر ، على حين تدهورت أحوال العمال والفلاحين بسبب الأزمات الاقتصادية

وغياب السياسات الاجتماعية، ولكنها تعتبر مد الوطنية المصرية منذ ١٩١٩ عاملا سلبيا من حيث كون غالبية الطائفة اليهودية من الأجانب كما يرجع ذلك الأمر أيضا إلى دستور ١٩٢٣ الذي لم يأخذ بمبدأ التمثيل الطائفى.

وترى الباحثة أن بداية التمييز في مصر ضد اليهود بدأ مع ظهور الفرع المصرى للحزب الاشتراكي الديموقراطي (النازي) الألماني في مصر في الثلاثينيات ، ونتج عن ذلك تنظيم الطائفة للاحتجاجات ضد المعاداة للسامية وتنظيم «عصبة مواجهة معاداة السامية»، التي أرسلت الاحتجاجات إلى الحكومة الألمانية وعصبة الأمم ، وعصبة حقوق الإنسان في باريس، وأقامت الروابط مع «العصبة الدولية لمقاومة معاداة السامية في ألمانيا (١٩٣٣)» ونظمت الطائفة حركة المقاطعة للبضائع والخدمات الألمانية في مصر ، ولكن ذلك لم يؤثر على المصالح الألمانية آو التجارة الألمانية لاقتصار المقاطعة على اليهود ، كما أثر على المقاطعة سلبيا اتفاق المنظمة الصهيونية فى فلسطين مع الحكومة الألمانية حول السماح بالهجرة لليهود الألمان مقابل تحويل أموالهم إلى بضائع ألمانية يتم تصريفها في فلسطين ومصر والعراق . وقد انتقدت الطائفة فى مصر تلك الاتفاقية، وتدخلت السلطات البريطانية فى مصر والحكومة المصرية للحد من تيار المقاطعة للبضائع الألمانية ولعب أعيان الطائفة (قطاوي وموصيري وغيرهم) دورا هاما في هذا الصدد .

والمصدر الثانى للمتاعب السياسية جاء من جانب جماعة مصر الفتاة والإخوان المسلمين وتنظيمات القمصان الملونة الفاشية ، والتي تحركت ضد اليهود بتأثير الأحداث التى جرت على أرض فلسطين (الثورة الفلسطينية الكبرى). واتهمت «الرابطة العربية» في مصر والتي ضمت بعض الشوام ،اتهمت في منشوراتها الطائفة اليهودية فى مصر بمساندة الصهيونية ، وبذلك تكاتف (في رأيها) الشعور الوطنى المعادى للصهيونية مع التعصب الدينى الإسلامى ضد اليهود ، وأصبح التمييز بينهما صعبا مما دعا رؤساء الطائفة (من الأعيان) يبرقون إلى حاييم وايزمان مطالبين بالاعتدال والتسامح بين اليهود والعرب فى

فلسطين ، وبذلوا الجهود للحد من النشاط الصهيوني في مصر ، فى مقابل قيام الحكومة المصرية بمقاومة النشاط المعادي لليهود في البلاد بتشديد الحراسة على المعابد والمنشآت اليهودية ومنع الطلاب العرب فى الأزهر من نشر الدعاية ضد اليهود .وتسجل الباحثة أن العداء لليهود كان قاصرا على الحركات السياسية ولم يمتد ليصبح تيارا جماهيريا عاما ، وتقيم الدليل على ذلك من المقالات التى نشرت بالصحافة المصرية التي دعت إلى حسن معاملة اليهود فى مصر وبرأت ساحتهم من التشيع للصهيونية .

ولكن تلك الظروف كان لها أثرها فى التوجه السياسى للحكومة المصرية واهتمامها بفلسطين وتطلعها إلى لعب دور سياسى إقليمي ، فشاركت في مؤتمر بلودان (١٩٣٧) ، وعرض رئيس الوزراء محمد محمود باشا الوساطة المصرية بين العرب واليهود فى فلسطين ، كما اشتركت مصر فى المائدة المستديرة فى لندن (١٩٣٩) ، وبذلك أصبحت مصر طرفا فى القضية الفلسطينية .وكانت السياسة المصرية تسعى إلى تحقيق التعايش السلمي بين العرب والصهاينة فى فلسطين.

وتشير المؤلفة إلى الاتصال الذي تم بين حاييم وايزمان والوفد المصري في مؤتمر المائدة المستديرة ، وحرص الصهيونية على أن تلعب مصر دورا فى التوصل إلى تسوية سلمية للنزاع ، ولكن الإنجليز لم يتوفر لديهم الاستعداد للقبول بدور مصري .

وخلال الحرب العالمية الثانية ازدادت التوترات السياسية الداخلية حدة ، وأحست الطائفة اليهودية بالخطر مع تقدم الألمان في شمال أفريقيا ، فهاجر اليهود من الإسكندرية إلى القاهرة ، ومن القاهرة إلى خارجها ، وأعد الحاخام حاييم ناحوم أفندى بالتعاون مع المنظمات الصهيونية قوائم بأسماء اليهود المعادين للفاشية من الصهاينة وقدمها للسفارة البريطانية التى وعدت بتهجيرهم من مصر ، فتوجه عدد منهم إلى فلسطين بصفة مؤقتة ، ولكن هدأت

مخاوف اليهود بعد معركة العلمين ، وتحول كفة الصراع فى أوروبا عام ١٩٤٣ لغير صالح الألمان.

أيد اليهود الحلفاء خلال الحرب ، وتبرع أثرياء الطائفة بمبالغ كبيرة لخدمة المجهود الحربى البريطانى ، وأقاموا النوادى للجنود اليهود المشاركين فى الحرب ضمن القوات البريطانية فى مصر ، واستمر قادة المنظمة الصهيونية فى مصر فى تقديم المعلومات الاستخبارية للبريطانيين حول النشاط الإيطالي والألماني في المنطقة . ولم يتحمس للفاشية من اليهود الإيطاليين فى مصر سوى نفر قليل ، أما معظم اليهود الإيطاليين فكانوا معادين لها . بل حول بعض أصحاب رؤوس الأموال منهم أموالهم من إيطاليا إلى مصر منذ الثلاثينيات ، وسجلوا شركاتهم فى مصر .

واتسعت خلال الحرب الفجوة بين الشرائح الاجتماعية من أبناء الطائفة ، فازداد أصحاب رؤوس الأموال ثراء ، بينما عانت الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى والفقراء من التضخم وارتفاع تكاليف المعيشة وندرة المواد التموينية .

وأشارت المؤلفة إلى الأزمة الاجتماعية والسياسية بعد الحرب من حيث أثرها على اشتداد نشاط الإخوان و مصر الفتاة، واستخدام الدعاية المضادة للصهيونية كوسيلة للحشد السياسى. وازدادت مخاوف أعيان الطائفة من تلك الظاهرة وخاصة بعد اغتيال لورد موين الوزير البريطاني للشرق الأوسط (نوفمبر ١٩٤٤) على يد مجموعة من عصابة شتيرن الصهيونية ، ولذلك سعى أعيان الطائفة من الصهيونيين وغيرهم لدرء الخطر عن الطائفة بعقد اجتماعات بين ممثلى المنظمة الصهيونية فى فلسطين (من أمثال موسى شرتوك والياهو ساسون) وبعض الساسة المصريين، دون أن يصلوا إلى نتيجة ما .

وشعرت السلطات البريطانية فى مصر والحكومة المصرية بالقلق نتيجة تنامى التيار المعادى للصهيونية واليهود على الساحة المصرية السياسية ،

وخاصة أن السلطات البريطانية كانت على يقين أن أي عمل يقوم به اليهود ضد العرب فى فلسطين سوف يفجر الموقف السياسى فى مصر . ومن ثم كانت سياسة قمع المظاهرات ، والتشدد فى اتخاذ الاحتياطات الأمنية في ذكرى وعد بلفور ٢-٣ نوفمبر ١٩٤٥ بالقاهرة والإسكندرية . ورغم ذلك اتسمت المظاهرات بالعنف ضد المصالح اليهودية .

وإزاء هذه الحوادث تعاون رؤساء الطائفة مع المنظمة الصهيونية لإعداد بيان احتجاج على ما وقع على اليهود من اعتداءات بأسلوب معتدل ، وأعلن رئيس الوزراء والديوان الملكى استنكارهما لما حدث ، ولكن شيخ الأزهر طالب الحاخام حاييم ناحوم أفندى بإعلان تبرأه من الصهيونية فرفض الاستجابة للطلب ، ولكنه ما لبث أن وجه لرئيس الحكومة خطابا (تحت ضغط رؤساء الطائفة والديوان الملكي والحكومة) أعلن فيه أن اليهود يريدون أن يكون لهم شرف الانتماء إلى مصر ويعتبرون ذلك واجبا مقدسا، ولكنهم يودون إبداء مشاعرهم بالمطالبة بحل المسألة اليهودية وإيجاد وطن لليهود الذين لا وطن لهم فى مكان أرحب من فلسطين ، وبالنسبة لفلسطين يعلنون أنه لا مفر من التعاون بين العرب واليهود فى جو من الوئام التام قائم على الثقة والتفاهم .

وترى المؤلفة أن تبني مصر لمشروع إقامة الجامعة العربية مثل نقطة تحول في توجهها السياسي نحو العروبة باعتبارها امتداد للفكرة الإسلامية ، وأن هذا التوجه جعل غير المسلمين من المسيحيين واليهود يحسون بتحولهم إلى ذميين مهمشين ، كما أن هذا التوجه أدى إلى توريط مصر فى حرب ١٩٤٨ .

رد الفعل اليهودى إزاء التغيرات السياسية

أثارت التغيرات التى شهدتها الثلاثينيات والأربعينيات مسألة الهوية فكان عليهم أن يختاروا بين أن يكونوا مصريين ديانتهم اليهودية أو «يهود من مصر» ينتمون إلى الأمة اليهودية . ولم يكن رؤساء الطائفة يهتمون بالسياسة إلا في حدود الدعوة إلى الانسجام والتعاون والتفاهم المتبادل . وبينما رأى البعض

الاندماج في الحركة السياسة المصرية، ورأى البعض الأخر التركيز على الخصوصية اليهودية ومن ثم الصهيونية ، لم يلق اليهود المحليون (المصريون) بالا لذلك كله ومضوا يتابعون حياتهم العامة دون أن يخامرهم الإحساس بالخطر ، أو يعنيهم أمر السياسة . كان هؤلاء من المتعلمين من الشرائح الدنيا للطبقة الوسطى أو من الفقراء لغتهم العربية ، كما كان نحو ربع الطائفة يحملون الجنسية المصرية . ولعب بعض اليهود المصريين دورا في الحركة السياسية المصرية تحت جناح الوفد ، بل كان من الصهاينة من ساند الحركة الوطنية المصرية (ليون كاسترو) فى نفس الوقت الذى يعمل فيه من أجل القومية اليهودية . ومثل الطائفة فى مجلس الشيوخ والنواب عدد من كبار أثريائها أبدوا ولاءهم للملك وللبلاد ، وتولى يوسف أصلان قطاوى الوزارة مرتين .

وفى سبتمبر ١٩٣٤ بدأت مجموعة من الصحفيين بالاشتراك مع سعد يعقوب مالكى (المدرس والكاتب بجريدة إسرائيل الصهيونية) إصدار جريدة الشمس التي كانت أهم جريدة عربية يهودية فى مصر ، وصدرت أسبوعيا حتى يونيو ١٩٤٨ . وفى عام ١٩٣٥ أسست نفس المجموعة «جمعية الشبان اليهود المصريين » شعارها «الوطن - الإيمان - الثقافة» وأصبحت «الشمس» لسان حالها. ولم يزد أعضاؤها عن ٤٠ عضوا عام ١٩٤١ . ورغم وجود بعض الصهاينة بين صفوفها كانت حريصة على الارتباط بالحركة الوطنية بقيادة الوفد ، وكانت تؤيد في نفس الوقت الوطن القومي اليهودي في فلسطين وتنادي بتعاون وتعايش الطرفين لأنهما ينتميان إلى ثقافة واحدة هى الثقافة السامية، وتؤيد - رغم ذلك - تمسك اليهود المصريين بمصريتهم مهما حدث في فلسطين ، وتدعو اليهود إلى الاندماج في المجتمع المصري ، ولكن جهود «التمصير» باءت بالفشل ، وكذلك محاولات التعريب فى المدارس ومجلس الطائفة.

وتناولت المؤلفة دور اليهود في الحركة الشيوعية من زاوية محاولات اليهود المشاركة فى الحركة السياسية للبلاد ، وتتبعت باختصار مختلف المنظمات التى أقاموها .

اختص النشاط اليهودى (باعتباره الخيار الآخر للعمل السياسي) قسطا كبيرا من الفصل وتكررت فيه معلومات وردت بالفصل السابق ربما لأن هذه النقطة كانت فصلا في كتاب آخر عن مصر وفلسطين كتبته المؤلفة .

فى هذه النقط تتبع الباحثة نشأة العمل الصهيونى فى مصر منذ أسس باروخ الجمعية الأولى عام ١٨٩٦ ، ولكن الفكرة الصهيونية لم تلق قبولا لدى السفارديم واليهود المصريين خاصة ، ولم تحظ بدعم البورجوازية اليهودية العليا إلا على نطاق محدود وعلى أساس فردى بالإسكندرية . ومع تزايد وصول المهاجرين اليهود الإشكنازيم إلى مصر خلال الحرب الأولى ، شكل هؤلاء جمهور الحركة الصهيونية فى مصر ، فتم تنظيم مظاهرة بالقاهرة احتفالا بصدور وعد بلفور ، وأبرقت إلى حاييم وايزمان والجنرال اللنبي بالتهنئة والتأييد، وأقيم احتفال آخر بالإسكندرية عام ١٩١٧ ثم عام ١٩١٨ .

ولكن الحركة الصهيونية فقدت جماهيريتها بسبب ترحيل بعض الإشكنازيم المهاجرين إلى فلسطين أو إلى بلادهم الأصلية بعد الحرب ، ولم يبرز الاهتمام مرة أخرى بالفكرة الصهيونية إلا في الثلاثينيات والأربعينيات نتيجة التغيرات السياسية التي شهدتها مصر وقدوم موجة جديدة من المهاجرين الإشكنازيم . وقامت بعض الجمعيات بالإسكندرية بجهود فردية ، ثم بدأت الوكالة اليهودية بفلسطين تولى مصر اهتمامها فأرسلت ثلاثة مبعوثين سريين عام ١٩٤٣ لتنظيم الهجرة السرية إلى فلسطين . وترى المؤلفة أن معظم من استهوتهم الصهيونية كانوا من الفقراء الذين لا وطن لهم ، والشريحة الدنيا للطبقة الوسطى (مدرسين - باعة جائلين - حرفيين - مهنيين).

وراحت جوردن كرامر تعدد العوامل التى كانت وراء تصفية الوجود اليهودى فى مصر ، وهى فى معظمها نفس العوامل التى أدت إلى تحجيم الوجود والهيمنة الأجنبية على الاقتصاد المصرى . يأتى في مقدمتها إلغاء الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة (اتفاقية مونترو عام ١٩٣٧)، والقوانين الخاصة بتمصير الوظائف بالشركات وفرض استخدام اللغة العربية فى جميع المعاملات

بها (عام ١٩٤٣) ، وصدور قانون الشركات (عام ١٩٤٧) الذى جعل للمصريين الغلبة في مجالس إدارة الشركات . أضف إلى ذلك المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية ذات التأثير السلبى ، مثل انتشار البطالة بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة إغلاق ورش الصيانة التابعة لقوات الحلفاء ، وانتشار روح العداء للصهيونية كرد فعل للصراع العربى الفلسطينى ضد الصهيونية (وخاصة ثورة ١٩٣٦) ومعارضة القوى السياسية المصرية لقرار تقسيم فلسطين (١٩٤٧)، ثم حرب فلسطين (١٩٤٨) ، وما صاحبها من إجراءات تطبيق الأحكام العرفية ، واعتقال النشطاء الصهاينة والشيوعيين من اليهود ، وفرض الحراسة على بعض الممتلكات والشركات الخاصة باليهود .

وهنا تميز الباحثة بين موقف مختلف القوى الاجتماعية اليهودية من فكرة الهجرة من مصر، فقد ظل كبار الرأسماليين اليهود يرون أنه لا مبرر لتصفية أعمالهم فى مصر ، لأن أعمالهم ومصالحهم لم تتأثر بما حدث عام ١٩٤٨ ، لتشابكها مع مصالح البورجوازية المصرية ، حتى تم تأميم أملاك معظمهم عام ١٩٥٦ فى غضون العدوان الثلاثى لكونهم من رعايا بريطانيا أو فرنسا ، ثم أممت مصالح اليهود الآخرين ضمن قرارات ١٩٦١ .

أما الشرائح الطبقية الدنيا والمتوسطة الصغيرة ، فقد بدأت تهاجر من مصر من خلال نشاط منظم للموساد عام ١٩٤٩ ، ففتحت مكاتب سفريات بالقاهرة والإسكندرية ، غضت الحكومة المصرية الطرف عنها ، تولت تسفير اليهود إلى أوروبا ومنها إلى إسرائيل ، وقامت القنصليات البريطانية والفرنسية والإيطالية فى مصر بإصدار وثائق السفر اللازمة لهم .

وقد فضل من هاجر من اليهود الأثرياء أو من شرائح البورجوازية المتوسطة، الاتجاه إلى أوروبا ، وأمريكا ، واستراليا ، بدلا من إسرائيل بينما اتجه الفقراء إلى إسرائيل ، وقد بلغ عدد من هاجروا من يهود مصر إلى إسرائيل فى السنوات ٤٩ – ١٩٥١ ما يتراوح بين ١٥ – ٢٠ ألفا من اليهود (٢٠٪ من إجمالى عدد

اليهود فى مصر عندئذ) . ويذكر التعداد الرسمى الإسرائيلى للعام ١٩٧٢ أن عدد اليهود القادمين من مصر إلى إسرائيل فى السنوات ١٩٤٨ - ١٩٥٤ ، بلغ ١٥٨٧٢ مهاجرا يهوديا .

وتختم جوردن كرامر دراستها بدحض مقولة تعرض اليهود فى البلاد العربية للاضطهاد الدائم لأسباب تتعلق بموقف الإسلام المعادى لليهود ، وترى فى ذلك تجنيا على الإسلام والمسلمين فى مصر ، وتذكر القارئ بما حققه اليهود في مصر من مكاسب وثروات ، وأوضاع اجتماعية وسياسية وثقافية متميزة. وترجع الأسباب الرئيسية لهجرة اليهود من مصر إلى المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى صاحبت حركة التحرر الوطنى فى مصر الموجهة ضد الهيمنة الأجنبية على مقدرات البلاد. ولما كانت غالبية اليهود فى مصر من أصحاب الرعوية الأجنبية ومن غير محددي الجنسية ، ويحجمون عن الاندماج فى الجماعة الوطنية ، لم يكن أمامهم من سبيل سوى البحث لأنفسهم عن ملجأ آخر ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الجاليات الأجنبية فى مصر .

٣ - شتات يهود مصر :

ويلتقط جويل بينين الخيط من جوردن كرامر لدراسة خروج اليهود من مصر منذ ١٩٤٨ حتى ١٩٦١ ، متناولا أسباب الخروج ، والمهاجر التى اتجهوا إليها .

فى المقدمة يشير المؤلف إلى أن ما دفعه للكتابة في هذا الموضوع هو ذلك التعدد فى النظر إلى يهود مصر من جانب المصريين والصهيونية ، وأثر السلام بين مصر وإسرائيل على اليهود الذى جاءوا من مصر إلى إسرائيل أو المهاجر الأخرى .

ويستهل الكتاب بفصل عن «جدل الهوية بين الطائفية والقومية» تحدث فيه عن أثر عملية سوزانا التخريبية(*) التي قام بها بعض يهود مصر الذين جندتهم المخابرات العسكرية الإسرائيلية في ١٩٥٤ ، فعلى حين ذكر من أطلق سراحهم

* فضيحة لافون.

(ممن شاركوا فى العملية في إطار تبادل الأسرى بعد ١٩٦٧) أنهم لم يرتكبوا عملا من أعمال الخيانة ضد مصر لأنهم لم يشعروا بانتمائهم الوطني إليها قط، يعود المؤلف إلى بيان وزير الداخلية المصرى خالد محيي الدين وتصريح المدعي العسكري بالقضية حيث ذكر كلاهما أن جريمة هؤلاء ضد مصر لا تبعث على الشك في وطنية اليهود المصريين ، وأنهم لا يحاكمون كيهود ولكن كجواسيس لدولة أجنبية .

من هذا المنطلق راح المؤلف يستعرض رؤية اليهود لمصر فى كتاب الإحصاء السنوي ليهود مصر والشرق الأدنى الذى كان يصدر بالفرنسية ، والذى ظل يؤكد عمق الجذور اليهودية فى مصر منذ ما قبل يوسف وموسى ، وتأثير مصر فى صياغة الديانة اليهودية التي أخذت بالتوحيد عن ديانة رع والشمعدان وعمود المعبد والختان مؤكدا روابط اليهود بمصر .

ويشير المؤلف إلى حرص المنظمين الصهاينة على استمرار الوجود اليهودى بمصر بعد قيام إسرائيل لإيمانهم بضرورة مد جسور التعاون بين مصر وإسرائيل على أساس سلمى. ورغم ذلك لم يهاجر إلى إسرائيل سوى ٤٥٪ من يهود مصر بينما اتجه الآخرون إلى أوروبا وأمريكا الجنوبية والشمالية .

ويعرض المؤلف لما كان عليه الوضع الطائفى لليهود فى ظل نظام الملة العثماني والتمثيل الطائفي لليهود والمسيحيين في عهد الاحتلال ، وبروز المواطنة خلال ثورة ١٩١٩ (الدين لله والوطن للجميع) مما جعل بعض اليهود يحسون بهويتهم المصرية بينما بقيت غالبيتهم في عداد الجاليات الأجنبية ، وتأثير الصراع العربي اليهودي في فلسطين فى ١٩٢٩ والثورة الفلسطينية الكبرى ٣٦ - ١٩٣٩ ، وظهور الإخوان المسلمين ومصر الفتاة ونمو روح العداء لليهود والاعتداء على ممتلكاتهم حتى جاءت حرب ١٩٤٨ لتزيد الموقف حرجا بالنسبة لليهود .

وتحدث المؤلف عن طائفة القرائين باعتبارها نموذجا لإشكالية الهوية عند

يهود مصر ، فيرجع أصولهم بالبلاد إلى زمن الفتح العربي ، ويبين كيف اختلفوا من حيث العقيدة عن باقى اليهود ، وتأثروا بالفقه الإسلامى والثقافة الإسلامية، واستخدموا العربية فى كتاباتهم الدينية وصلواتهم ، مما جعلهم الطائفة الوحيدة التى اندمجت تماما فى الجماعة الوطنية المصرية ، ونفروا من الصهيونية . وكانوا يقيمون فى حارة اليهود ، ويعملون بمهنة الصاغة وغيرها من الحرف ، ومن كان ميسور الحال منهم فضل سكنى العباسية ومصر الجديدة ، واتجهوا إلى تعليم أولادهم بالمدارس الأجنبية ، وحاولوا التواصل مع غيرهم من اليهود الذين كانوا يعتبرون القرائين فئة ضالة ملحدة . وكان موسى مرزوق (الذي قاد عملية سوزانا وأعدم بسببها) من هذه الشريحة الاجتماعية من القرائين. وهاجر أخاه يوسف إلى إسرائيل عام ١٩٥٣ ولكنة عانى من التمييز ضد القرائين هناك رغم أن شقيقه اعتبر بطلا قوميا فى إسرائيل .

ورغم افتقار البورجوازية اليهودية الكبيرة من السفارديم التي قدمت إلى مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (قطاوى وموصيري وغيرهم) إلى الخصائص الثقافية التى كانت للقرائين ، لم يعتبروا أنفسهم أقل « مصرية» منهم بحكم تداخل مصالحهم مع نفس الشريحة الطبقية من المصريين ، رغم ثقافتهم الأوروبية ، بينما كان السفارديم الذين هاجروا إلى مصر من مختلف أنحاء الإمبراطورية العثمانية أقدر على التأقلم مع المجتمع المصرى بحكم ثقافتهم الشرقية ، وخبراتهم بالوساطة التجارية بين أوروبا والدولة العثمانية ، مما جعل معظمهم يحصلون على رعوية أوروبية للاستفادة من الامتيازات الأجنبية ويفضلون التعامل باللغة الفرنسية . وقد عارض هؤلاء السفارديم الدعوة الصهيونية معارضة شديدة .

وكان للمدارس الفرنسية سواء تلك التي أقامها الأليانس الإسرائيلي أو مدارس الإرساليات الكاثوليكية دور بارز في إيجاد إطار ثقافي فرنسي يجمع بين شباب اليهود المنتمين إلى الطبقة الوسطى . ولعبت هذه المدارس دورا فى نشر الفكرة الصهيونية بين تلاميذها على يد مدرسين كانت لهم روابط مع المنظمة

الصهيونية والوكالة اليهودية في فلسطين. وعلى يد هؤلاء أيضا نشطت الدعوة إلى «الاشتراكية الصهيونية» ، وكذلك الماركسية ، وانضم بعض تلاميذ هذه المدارس من اليهود إلى المنظمات الصهيونية في مصر في الثلاثينيات والأربعينيات. ولكن الماركسيين من أتباع هنري كورييل تحديدا حاولوا أن يتمصروا دون نجاح كبير .

وهكذا انحصر شباب الطبقة الوسطى بين ولائهم لأسرهم وروابطهم بنواديهم في وسط ثقافي فرنسي لا يضرب بجذوره في المجتمع المصري فغلبت القومية الصهيونية على من اعتنقوا الفكرة الصهيونية ، بينما تنازعت الماركسيين الاشتراكية الصهيونية والأممية الشيوعية .

ويعرض المؤلف للكتابات العبرية التى كتبها أفراد من اليهود الذين عاشوا فى مصر ، أولها ليهودية شرقية من أصول يمنية - عراقية، اشتغلت أسرتها بالاتجار في الجواهر في بومباي، ثم انتقلت إلى مصر في أواخر القرن الثامن عشر أو مطلع القرن التاسع عشر ، كانت أمها صهيونية تتعالى على المصريين وتراهم برابرة متخلفين ، رغم أن الأب كان عربي الثقافة يرتبط بعائلة قطاوي ويعمل لديها ، اعتنقت الابنة الصهيونية وهاجرت إلى فلسطين فى أوائل الثلاثينيات وساهمت في بناء الدولة العبرية بالعمل في الكيبوتز والقتال فى الجيش ، وترسم كتاباتها صورة سلبية لمصر ، ولليهود فيها ، وتؤكد أن وحدة الانتماء إلى الصهيونية وإسرائيل وتنفي ازدواج الهوية .

وهناك كاتبة أخرى إشكنازية نشأت بالإسكندرية فى وسط ثقافي فرنسي ، كانت لها زميلات مصريات فى المدرسة ، انضمت إلى الصهيونية وهاجرت من مصر عام ١٩٤٠ إلى الغرب ثم إلى إسرائيل عام ١٩٥٤ ، وهى تعبر عن غياب التجانس بين اليهود فى مصر والإحساس بالاغتراب عند الإشكنازيم، ومن ثم النظرة المتعالية إلى المجتمع المصرى باعتباره مجتمعا فقيرا متخلفا لا أمل فى تقدمه إلا إذا تبع أوروبا ، وهنا تفضل إسرائيل مصر بحكم تمدنها .

النموذج الثالث لروبير داسا، الذى كان أحد من سجنوا فى قضية سوزانا لمدة ١٤ عاما وسلم لإسرائيل عام ١٩٦٧ . وفيه لا يرى أنه ارتكب عملا من أعمال الخيانة ضد مصر لأنه إسرائيلى الهوية وينحى باللائمة على الحكومة الإسرائيلية التي تركته ورفاقه في ليمان طرة طوال تلك السنوات فلم تبادلهم بأسرى ١٩٥٦ ، ويتحدث عن شعوره بالارتياح عندما زار مصر عام ١٩٧٩ لتغطية زيارة بيجن للإذاعة الإسرائيلية وكيف تعددت زياراته بعد ذلك وإحساسه بالحرية الحقيقية وهو يتجول فى شوارع الإسكندرية والقاهرة .

وخلاصة هذه النقطة أن القرائين وحدهم هم الذين كانوا مندمجين فى المجتمع المصري ، أما بقية اليهود فتراوحت هويتهم بين المتوسطية التي تجمعها الثقافة الفرنسية ، ويعتبر بعضها نفسه مصريا من حيث المصالح وروابطها، بينما كان الآخرون لا يعنيهم من مصر إلا كونها ملاذا آمنا لهم ، ويجدون هويتهم فى الصهيونية .

وفى الفصل الثانى درس المؤلف وضع اليهود فى البلاد العربية ومصر بعد قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ ، مستهلا الفصل بالحديث عن الصهيونية باعتبارها تسعى لتكوين طراز خاص من اليهود فى الوطن القومي ، ويشير إلى التناقض بين اعتبار العداء للسامية واضطهاد اليهود حجر الزاوية في المشروع الصهيوني ، والممارسات الصهيونية ضد العرب فى إسرائيل التي تتجاوز النموذج النازي في التمييز والاضطهاد .

ويبدأ الحديث عن وضع يهود مصر فيما بين ١٩٤٨ - ١٩٧٩ بعرض ما جاء بخطاب محمد حسين هيكل باشا فى الجمعية العامة للأمم المتحدة عند النظر فى قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ حيث أشار إلى أن اليهود يحظون في مصر وغيرها من البلاد العربية بوضع متميز باعتبارهم مواطنين يكفل القانون حقوقهم ، وأنهم يمارسون حياتهم الاقتصادية والدينية والثقافية بحرية تامة . ويتخذ المؤلف من هذه الكلمة مؤشرا ضمنيا إلى ما قد يفقده اليهود من مزايا

بسبب قيام الدولة العبرية فى فلسطين ، ويتغافل عن ذكر المغزى الحقيقي للخطاب الذي ركز على أن ليس ثمة مبرر لإقامة دولة يهودية على حساب شعب لم يضطهد يوما اليهود ، لحل مشكلة لم يكن طرفا فيها .

ويربط المؤلف بين تصاعد العداء للصهيونية في مصر خلال الثورة الفلسطينية الكبرى ٣٦ - ١٩٣٩ على يد الإخوان المسلمين و مصر الفتاة والحوادث التى صاحبت ذلك ثم ما ترتب على ما أسماه غزو القوات المصرية لإسرائيل عام ١٩٤٨» من هزيمة ، تحمل وزرها يهود مصر ، فأصبحوا رهينة الصراع العربى الإسرائيلى ومن ذلك اعتقال نحو ٦٠٠ يهودى فى أعقاب إعلان الأحكام العرفية عام ١٩٤٨ كان نصفهم من الصهاينة والنصف الآخر من الشيوعيين ، ووضع ممتلكات بعض اليهود ذوي الميول الصهيونية تحت الحراسة، وحالات الهجوم على حارة اليهود وبعض ممتلكات اليهود كرد فعل للغارات الجوية الإسرائيلية على القاهرة ، وعبر رئيس الوزراء (محمود فهمى النقراشي) للسفير البريطانى فى القاهرة عن وجهة نظره بالقول « بأن كل يهودي هو صهيوني محتمل و لكن كل صهيونى هو شيوعى دون شك».

جعلت هذه الظروف التى واكبت حرب ١٩٤٨ من الهجرة إلى إسرائيل خيارا شعبيا إسرائيليا ، فتشير سجلات الوكالة اليهودية إلى ١٦٥١٤ يهوديا هاجروا من مصر إلى إسرائيل فيما بين ٤٨ - ١٩٥١ جاءت غالبيهم فى ٤٩ - ١٩٥٠ ، إضافة إلى ستة آلاف هاجروا إلى فرنسا (بينهم الشيوعيين المبعدين) والقليل منهم إلى إيطاليا وبريطانيا . وبلغ عدد المهاجرين إلى إسرائيل فيما بين ٥٢ - ١٩٥٦ ، ٤٩١٨ ، بينما هاجر خمسة آلاف يهوديا آخرين إلى جهات أخرى ، وبقي في مصر ٥٠٠٠٠ يهودى حتى ١٩٥٦ . وكان السفارديم أكثر ميلا للبقاء فى مصر من الإشكنازيم، فقد قدر المؤتمر اليهودى العالمي عدد اليهود في مصر عام ١٩٥٠ بـ ٦٨,٠٠٠ بينهم ثلاثة آلاف إشكنازيم والباقي سفارديم ، وفي عام ١٩٥٤ قدر العدد بـ ٤٥٠٠٠ بينهم مائة فقط من الإشكنازيم، ولا يتضمن أرقام المؤتمر اليهودى العالمى اليهود القرائين ، ولا توجد أرقام محددة لتعداد

القرائين فى مصر ، ولكن يقدرهم المؤلف بخمسة آلاف بقى ٦٠٪ منهم بمصر حتى حرب السويس(١٩٥٦)، وبقي ٢٠ ٪ منهم بمصر حتى أوائل الستينيات، وبصفة عامة كان اليهود الفقراء يتجهون إلى إسرائيل أما الأغنياء (فيما عدا الصهاينة) فقد اتجهوا إلى بلاد أخرى .

وقد اهتمت الصهيونية بتنظيم هجرة اليهود المصريين ٤٨ - ١٩٥٦ على اعتبار أن بقاء اليهود فى مصر أصبح مستحيلا ، وأن من لا يرى ذلك يعد مضللا . والواقع أن من بقى من اليهود فى مصر كانوا يعانون من ضغوط الصهاينة من ناحية، والخطاب المصري الوطني المعادي من ناحية أخرى ، الذى أدى إلى الضيق التدريجى لمجالهم الاجتماعى .

ويشير المؤلف إلى حرص حاييم ناحوم أفندى حاخام الربانيين وكذلك حاخام القرائين على إعلان تأييدهما لثورة يوليو ، وزيارة محمد نجيب للمعبد اليهودى بشارع عدلى وتصريحه بأن الدين لله والوطن للجميع ، ولكن بعض التصريحات والمعالجات الإذاعية بعد ١٩٥٤ وإزاحة نجيب أثارت قلق الطائفة . ويقدم نموذجا لذلك الموقف من ذكرى داود حسنى التي تم الاحتفال بها دون الإشارة إلى أصله اليهودي ، وما واجهته ليلى مراد من صعاب بسبب يهوديتها (١٩)

ويعرض المؤلف إلى ما أصاب اليهود من قلق بعد كشف شبكة التجسس والتخريب التى عملت لحساب إسرائيل (سوزانا ١٩٥٤) ثم حرب السويس ٥٦ وما نجم عنها من فرض الحراسة على أملاك اليهود ممن يحملون رعوية الدول المعتدية ، وهجرة أصحاب رؤوس الأموال اليهودية من مصر إلى أوروبا وأمريكا بين نوفمبر ١٩٥٦ ومارس ١٩٥٧ ، حيث هاجر إلى إسرائيل ١٤١٠٢ يهودى من مصر ممن فقدوا ثرواتهم. وفيما بين منتصف ١٩٥٧ ومنتصف ١٩٦٧ ، هاجر من مصر ما بين ١٧ - ١٩ ألف يهودى من ميسوري الحال اتجهوا إلى مهاجر أخرى غير إسرائيل. وعند نهاية الهجرة كان ما يتراوح بين ثلث ونصف يهود مصر قد اتجهوا إلى إسرائيل ، أما الآخرون فاتجهوا إلى البرازيل وفرنسا والولايات المتحدة والأرجنتين وإنجلترا وكندا .

وخصص المؤلف فصلا كاملا لعملية "سوزانا "من حيث أثرها فى الخطاب السياسى الإسرائيلى المتعلق بمصر ، والمصري المتعلق بإسرائيل واليهود ، وانعكاساته على الوجود اليهودى فى مصر .

القسم الثانى من الكتاب - الشتات وإعادة بناء الهوية

خريجو هاشومير وهاتزاعير في إسرائيل

رغم أن الصهيونية بدأت نشاطها فى مصر في أواخر القرن التاسع عشر إلا أنها لم تجد لها قاعدة اجتماعية محدودة سوى فى عامى ٤٢ - ١٩٤٣ . وخلال العشرينيات والثلاثينيات كان النشاط الصهيوني في مصر مركزا على الأعمال الخيرية (رعاية اللاجئين) والثقافية (المدارس) وجمع التبرعات لتأسيس الجامعة العبرية ، وأثرت الثورة الفلسطينية الكبرى (٣٦- ١٩٣٩) سلبيا على هذا النشاط بسبب بروز العداء للصهيونية، وتعارض مساعدة نشاط المنظمة الصهيونية في مصر مع الولاء للبلاد. ولما كان يهود مصر ميسوري الحال نسبيا في الثلاثينيات ، فقد تجنبوا الانخراط فى الصهيونية أو تأييدها حتى لا يعرضوا أنفسهم للخطر ، كما أن القلة من اليهود التى اعتنقت الصهيونية نادرا ما اتجهت إلى الهجرة إلى فلسطين ، فلم يتجاوز من هاجروا إليها من مصر فيما بين عامى ١٧ - ١٩٤٧ عن ٤٠٢٠ كان معظمهم من اليمنيين والمغاربة والإشكنازيم الموجودين بمصر . ويرجع ازدهار الصهيونية في مصر عند نهاية الحرب العالمية الثانية إلى قرب انعقاد المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين عام ١٩٤٦ ، فاشترى ٧٥٠٠٠ يهودي من مصر (نحو١٠٪ من الجالية) الشيكل. وهو المساهمة المالية التى تعطى من يدفعها حق اختيار من يمثله فى المؤتمر.

وكانت حركة الشباب اليهودي تضم أكثر العناصر الصهيونية نشاطا التي طورت رؤية راديكالية لتجديد اليهودية من خلال الهجرة إلى فلسطين والعمل اليدوي في المستوطنات الزراعية ، ولا يتحقق ذلك إلا بالهجرة (عاليه) والاستيطان (هيتايا شفوت) والريادة (هالوتزيوت) وتحقيق الذات (هاجشا ماج

أتزيمت). .وكانت "جماعة الرواد المتحدين" أكبر منظمة صهيونية شبابية في مصر عام ١٩٤٧ ، ثم جماعة "الحارس الشاب " ذات الاتجاه اليساري ، وجماعتان أخريان تتبعان التيارات الدينية اليمينية في الحركة الصهيونية . ويتتبع المؤلف نشاط تلك الجماعات الصهيونية وغيرها بين اليهود المصريين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية متناولا بالتفصيل الخلافات بين الفصائل الصهيونية المختلفة حول طبيعة الوطن القومى وكيفية تحقيقه ، ثم يعالج بقدر من التفصيل الكيبوتزات التي اتجه إليها اليهود المهاجرون من مصر ، وما صادفهم من ظروف بيئية وسياسية في كل منها، وأثره على خياراتهم السياسية .

المهاجرون الشيوعيون إلى فرنسا

كان لليهود دور بارز في إحياء الحركة الشيوعية فى مصر فكان هناك (ربما) ألف شيوعى يهودي فيما بين الثلاثينيات والخمسينيات ، كما كان بين اليهود بضعة آلاف من المتعاطفين والمؤيدين للشيوعية ، ولعل ذلك كان وراء زعم بعض الباحثين أن الشيوعية لا تتوافق مع المسلمين وثقافتهم. ثم يتحدث المؤلف عن هنري كورييل (١٤. ١٩٧٨) ودوره في تأسيس الحركة المصرية للتحرر الوطني عام ١٩٤٣ ، ودور يهودى آخر هو هليل شفارتز في تأسيس إسكرا (الشرارة) عام ١٩٤٢ .

وفى أوائل ١٩٤٧ انضمت «تحرير الشعب» التى أسسها يهودي من أصل إيطاليا إلى إسكرا ، ثم انضم تنظيم كورييل في مايو ليكونوا معا «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني» (حدتو). والتف التنظيم الشيوعى الرابع حول مجلة «الفجر الجديد» وأسسه ثلاثة من اليهود هم يوسف درويش ، أحمد صادق سعد ، وريمون دويك ، والتنظيم الخامس هو الحزب الشيوعى المصرى (١٩٥٠/٤٩) «الراية» أسسه فؤاد مرسي وإسماعيل صبري عبد الله وسعد زهران، وضم المثقفين المصريين من المسلمين والأقباط. وكان ذلك التنظيم شديد الانتقاد لدور كورييل واليهود في الحركة الشيوعية المصرية واتهمهم بالانحلال الخلقي ، ولذلك رفضت «الراية» قبول اليهود بين صفوفها .

وكان هناك خلاف بين المنظمين اليهود ، فعلى حين ذهب مارسيل إسرائيل إلى أن اليهود (وخاصة من تلقوا تعليما أجنبيا) هم أجانب ولا يحق لهم احتلال مواقع قيادية في التنظيم ، رأى اليهود فى الفجر الجديد أن ثقافتهم العربية كفيلة بستر أصولهم الدينية ، فهم يعتبرون أنفسهم مصريين ويحظون بالاحترام والقبول فى تنظيمهم. ورفض شفارتز وكوريل ومن التف حولهما من الكوادر اليهود اعتبار أن الأجانب ليس من حقهم قيادة الحركة الشيوعية المصرية .

وجاء قرار تقسيم فلسطين ليثير الخلاف بين الشيوعيين اليهود ويؤدى إلى انقسام وحدة الحركة فى حدتو ، ويثير معها اعتراض بين الكوادر المصرية على قيادة كوريل. واعتبر كوريل هذا الموقف دليلا على شوفينية معارضيه وعدائهم لليهود .

وعندما وقفت حرب ١٩٤٨ تم اعتقال اليهود الصهاينة والشيوعيين وترحيلهم خارج البلاد ، فأبعد كوريل ورفاقه إلى فرنسا ، وأطلقوا على أنفسهم اسما حركيا «مجموعة روما» ، وظلوا حريصين على الاحتفاظ بروابطهم مع الحركة في مصر ، وعندما فصلهم زملاؤهم المصريون من القيادة لكونهم أجانب احتجوا على ذلك . وقد أيدوا جهود يوسف حلمى (سكرتير حركة السلام) لإقناع إسرائيل بقبول قرار باندونج بالتعايش مع العرب فى حدود قرار التقسيم. وعندما أمم عبد الناصر قناة السويس أيدوا القرار وسربوا للحكومة المصرية خطة العدوان الثلاثى على مصر ، ولكن عبد الناصر لم يأخذها مأخذ الجد .

وعندما تأسس الحزب الشيوعي المصري الموحد(١٩٥٧)، أصر الأعضاء على حل مجموعة روما وطرد كوريل وبطانته ، وذهب يوسف درويش وريمون دويك وصادق سعد إلى اتهام كوريل بالميل إلى الصهيونية. واعتبرت مجموعة روما القرار الموحد ضربا من العنصرية، ولكن عندما اعتقل عبد الناصر الشيوعيين لم تتوان مجموعه روما عن مساعدتهم ماديا وسياسيا من خلال حشد القوى السياسية المطالبة بإطلاق سراحهم .

ولكن كان على كوربيل ورفاقه أن يبحثوا عن توجه آخر فاهتموا بالعمل مع الثورة الجزائرية ، وبعد استقلال الجزائر اتجهت المجموعة إلى مساندة حركات التحرر فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وكونت "منظمة التضامن" التى لعبت دورا فى مساعدة المناضلين مستفيدة من التمويل الجزائري حتى سقوط بن بللا، ورغم ذلك ظل الحزب الشيوعي الفرنسي والحزب الشيوعي الإسرائيلي بمنأى عن كوربيل رغم محاولات كوربيل التقريب بين الشيوعيين العرب والشيوعيين الإسرائيليين من أجل تعزيز فرص السلام بين العرب وإسرائيل .

ويعدد المؤلف جهود مجموعة باريس (روما) فى السعى لتسوية النزاع العربي الإسرائيلي سلميا فيعود إلى ذكر محاولات يوسف حلمى (١٩٥٥) والجهود التى بذلت لدعمها ، ثم اللجوء إلى منديس فرانس (رئيس الوزراء الفرنسي اليهودي صهر شيكوريل) عام ١٩٦٨ لطرح اقتراح بتسوية تقوم على القرار ٢٤٢ .

وعندما طالب رفاق كوربيل المصريين زعيمهم السابق عام ١٩٦٩ بتحديد موقفه من إسرائيل رد بمذكرة مطولة شرح فيها أن إسرائيل دولة قومية لها حق تقرير المصير حتى لو كانت تعتبر نتاجا لحقيقة استعمارية فالكثير من الدول جاءت نتيجة لحقيقة استعمارية. ورأى أن الصراع العربى - الإسرائيلى يعوق الأجندة الاشتراكية على الجانبين وأن الأمر يتطلب التجاور مع الشعب الإسرائيلى والعيش بسلام مع العرب .

ومن ثم يذهب المؤلف إلى أن كوربيل دبر لقاءات بين أحمد حمروش عام ١٩٦٨ وبعض قيادات اليسار الإسرائيلي ، كما كان وراء تدبير اللقاء بين ناحوم جولدمان رئيس المنظمة اليهودية العالمية وعبد الناصر عام ١٩٧٠ بالاستعانة بـ اريك رولو ، وهو الاجتماع الذي حالت دونه جولدا مائير .

كذلك تتبع المؤلف الجهود التى بذلت من شيوعيين آخرين ذوي أصول يهودية مصرية ، ودور هنري كوربيل في التواصل بين منظمة التحرير الفلسطينية والمجلس الإسرائيلي للسلام الفلسطيني - الإسرائيلي، وكلها جهود تشير إلى

حرص من سماهم «اليهود المصريين بفرنسا» على لعب دور فى تخليص إسرائيل من أعباء الصراع العسكرى والسياسي مع جيرانها .

القرائون فى خليج سان فرانسسكو

كان القرائون لا يهتمون بالصهيونية ، ولم يزد عدد من هاجر منهم إلى إسرائيل حتى عام ١٩٥٦ عن مائه شخص والآن يقدر عددهم بإسرائيل ما يتراوح بين ١٥ - ٣٠ ألف لأن الإحصاء اليهودي لا يتضمنهم إذ إن الإسرائيليين لا يعدونهم يهودا ويعتبرونهم ملحدين وأبناء زنا ، ويخصصون القرى التعاونية النائية لهم لإقامتهم. وتأتى معظم هجرة القرائين إلى إسرائيل من الفقراء ، وهناك القليل من ميسوري الحال الذين هاجروا إلى إسرائيل بعد ما تمكنوا من إخراج ثروتهم معهم ، وهؤلاء يقيمون بأحد أحياء تل أبيب .

ولكن السواد الأعظم من اليهود القرائين المصريين لم يتجهوا إلى إسرائيل ولكن هاجروا إلى الولايات المتحدة واستقروا عند خليج سان فرانسسكو. ويبلغ عدد أسر القرائين هناك ١٣٠ أسرة، وهناك ٣٠٠ أسرة أخرى تتركز فى أماكن محدودة في بالتيمور ونيويورك وبوسطن وشيكاجو. ونظرا لإنكار اليهود الآخرين لهم ، أعاد هؤلاء بناء هيكل حياتهم اليهودية- المصرية من جديد ، فهم مصريون فى طعامهم وعاداتهم .

ويلقى المؤلف نظرة موجزة على حياة بعض الأسر ويناقش مشكلة الاندماج التي يعانونها بسبب تمسكهم بعقيدتهم وحاجاتهم إلى تزويج بناتهم من يهود من طائفتهم لأسباب دينية. ومن ثم تنظيمهم لاتحاد اليهود القرائين بأمريكا ليجمع شملهم ، وإقامتهم لمعبد خاص فى سان فرنسسكو. كما أقاموا روابط مع المركز العالمى للقرائين بالرمالة بإسرائيل ويزورهم من حين لأخر الحاخام الأكبر للقرائين في إسرائيل .

السلام المصري - الإسرائيلي والتاريخ اليهودي

يتضمن هذا الفصل عدداً من كتابات اليهود المصريين فى إسرائيل عن ذكرياتهم فى مصر .

أدا أهاروني «خطاب إلى قدرية من حيفا إلى القاهرة مع حبي»، يتضمن مذكرات طفولتها فى القاهرة وعلاقتها بزميلتها قدرية التى كانت تشاركها تحرير مجلة المدرسة ، وكيف كانت أسرتها تعيش على هامش المجتمع المصرى لا تتكلم لغته أو تعرف عاداته حتى خرجت العائلة من مصر عام ١٩٥٦ .

ولما كان اليهود المصريون يشكلون أقلية بين اليهود الشرقيين فقد كان عليهم أن يقدموا أنفسهم للمجتمع الإسرائيلي من مدخلين :إخلاصهم للصهيونية وإيمانهم بها ، وتعرضهم فى مصر للاضطهاد على أيدى أهل البلاد لكونهم يهودا . ورغم أن اليهود فى مصر لم يعانوا شيئا من ذلك إلا فى ظروف خاصة في أواخر الثلاثينات وفي أعقاب الحرب الثانية إلا أن كتابات بعض اليهود المصريين الإشكنازيين والسفارديم تعيد بناء تاريخ اليهود فى مصر وفق هذه المتطلبات ، فهناك الاعتقالات والتعرض للاعتداء والاغتصاب الجنسي ومصادرة الممتلكات ، على نحو ما فعل كوهين تسيدوي في كتابه عن ذكريات يهود الإسكندرية ، الذي استخدم في وصفه لسياسة الحكومة المصرية تجاه اليهود فى الأربعينيات نفس المصطلحات التى تستخدم فى الحديث عن النازية .

يشير المؤلف كذلك إلى كتاب شلومو باراد وهو تونسي جاء إلى مصر فى الأربعينيات وكان ناشطا صهيونيا عالج فى كتابه «تاريخ النشاط الصهيوني في مصر» النشاط الصهيونى قبل عام ١٩٤٨ بقدر كبير من المبالغة فيما تعرض له الصهاينة من ملاحقة واضطهاد .

ويرصد هذا الفصل من الكتاب التغير فى تقديم صورة الذكريات المصرية بعد إبرام السلام مع مصر بالحديث عن ذكريات الصداقة المصرية والحياة الناعمة.

ويرجع المؤلف اهتمام الباحثين المصريين فى الثمانينيات من القرن العشرين بدراسة الوجود اليهودى فى مصر الحديثة إلى معارضة المصريين لاتفاقيات السلام التى أبرمها السادات مع إسرائيل ، فراح المصريون ينقبون فى تاريخ اليهود فى مصر الحديثة ، مع إبراز السلبيات وإنكار الإيجابيات ، ويرجع

ذلك إلى بروز «روح العداء للسامية» في مصر. وعندما يضرب المثل لذلك يقف عند دراسة سهام نصار للصحافة الصهيونية فى مصر (١٩٤٨ ـ ١٩٦١) ، ودراسة نبيل عبد الحميد سيد عن خروج اليهود من مصر (١٩٤٨ ـ ١٩٦١) ، وأنس مصطفى كامل عن الرأسمالية اليهودية فى مصر. وبذلك يعد كل نقد لليهود فى مصر ضربا من ضروب «المعاداة للسامية»!

الخاتمة :

يتضح من العرض السابق تفاوت المستوى المنهجي لمعالجة الوجود اليهودي في مصر الحديثة عند أصحاب الدراسات الثلاث، لانداو بالسرد ، دون أن يحاول تحليل المادة التى تجمعت بين يديه ، ودون تمحيص للمقولات السائدة عن " الاضطهاد" المزمن لليهود فى مصر ، رغم أن المادة التى يعرض لها تشى بغير ذلك ، نجد كرامر تقدم دراسة متعمقة ، وتقوم باستخدام كل الأدوات المنهجية فى تحليلها وتفسيرها واستخلاص النتائج منها ، فكان من الطبيعي أن تخلص إلى النتيجة التى وصلت إليها من دحض فكرة «الاضطهاد»، ورد الظروف التي واجهت اليهود فى مصر إلى عوامل موضوعية .

وإذا كان بينين قد حذا حذو كرامر من حيث استخدام الأدوات المنهجية فى تحليل المادة واستخلاص النتائج منها ، إلا أنه لم يتخلص من « صهيونيته» وإن ادعى غير ذلك، فهو حتى عندما يتحدث عن الشيوعيين يستخدم مصطلحا فريدا هو" الشيوعيون اليهود" ، فاليهود عنده « هوية» تأتى قبل غيرها من الهويات ، ومن هنا كان ذلك موقفه الغريب من كتابات الباحثين المصريين ورميهم بتهمة «العداء للسامية».

غير أن الكتب الثلاث استخدمت الأرشيف الإسرائيلي والمصادر الوثائقية اليهودية، والأدبيات العبرية مما يتيح للباحث العربى الوقوف على مادة هامة مستقاة من تلك المصادر. ولا يزال المجال متسعا للمزيد من الدراسات العربية عن الوجود اليهودي في مصر الحديثة وعلاقته بالنسيج الوطنى.